

النباتات الطبية

تاريخها - قصصها - وأساطيرها

د. جوزيف كلاس

□ آيات على صفحات الطبيعة :

إن للباري تعالى كتباً أنزلت بالوحي على الأنبياء والمرسلين ، سطرها الانسان بالقلم ؛ وكتباً خطتها يده تعالى على صفحات الطبيعة ، نشرت في السهول والجبال والوديان وفي أعماق البحار ، وكتبت آياتها على أزهار وأوراق وجذور النباتات ، وكشفت أسرارها في أجسام بني البشر وفي أجسام الحيوانات .
وان من يقرأ الطبيعة بروح التقوى ، كقراءته لكتب الله عز وجل ، يجد فيها ما يعزز في قلبه الايمان بعظمة مبدع هذا الكون .

□ الأرض تنبت الدواء :

لقد شاعت حكمة الخالق وهو منزل الداء ، أن تنبت الأرض الغذاء ، وأن تنتج الدواء . ولقد عرف الانسان المداواة بالنباتات ، منذ أقدم العصور ، ونمت معرفته هذه ، وترعرعت في أقدم الحضارات ، وانتشرت في العديد من أرجائها فتناقلتها مختلف البلدان . وحين لجأ الانسان الى النباتات وخصائصها الشافية ، كان عمله ذاك ، يمثل الجهد الأول الذي بذله من أجل قراءة الطبيعة وفهمها ، والاستفادة منها ، وكذلك من أجل التحرر من الخوف من المرض . وكان هذا الخوف يشكل أحد أقدم أسباب القلق ، عند الانسان الأول .

□ المعارف الخالدة :

وما هو جدير بالاعجاب ، هو أن كل الحضارات ، في كل القارات ، طورت تأهيل النباتات وزرعها ، للحصول على الغذاء ، وطورت الى جانب ذلك عملية البحث عن الخصائص العلاجية ، لتلك

النباتات • وكان رائعاً أيضاً ، أن هذه المعارف اجتازت آلاف السنين ، وقضت تلك العصور ، متعمقة في البحث ومتوسعة في التحري دون أن تصاب بالهرم ، أو تلحق بها أسباب التدهور • فالاستفادة مثلاً ، من خصائص الأفيون ، المستحضرة من نبات الخشخاش ، قبل أن يستحضر العلماء المورفين منه بحوالي ٤٠٠ عام ، دليل على استمرارية وخلود هذه المعارف التي بقيت زمناً طويلاً ، معارف تجريبية ، ولكنها أصبحت بفضل تقدم العلوم ، في القرون الأخيرة أشد ثباتاً ، وأكثر دقة من ذي قبل •

□ دساتير علمية للأعشاب :

وفي الوقت الذي كانت فيه المعارف العلمية لطب الأعشاب تتكون وتجمع وتنسق ، كانت المعارف الطبية « الشعبية » ، المبنية على استعمال النباتات الشافية ، تنمو وتزدهر • ولقد وضعت هذه الأخيرة الأسس الأولية للدساتير « العلمية » للأعشاب واستمرت في اغنائها • هذه المعارف الشعبية المرتكزة على تقاليد شفوية انتقلت من الآباء إلى الأبناء ، كانت تطبق على مستويات مختلفة ، أول هذه المستويات اللجوء إلى استخدام النباتات الطبية في المداواة ، وآخرها فن « الشفاة » المختصين ، الذين غالباً ما كانوا ، ولا يزالون حتى يومنا هذا ، يحيطون أعمالهم بالألغاز أو الأسرار ، وأحياناً بشيء من ضروب السحر •

□ عصر النهضة وتطور العلوم :

وما أن أطل عصر النهضة في أوروبا ، حتى أخذ علماء الغرب ، يفيدون من بعث الروح العلمية ، التي بقيت في ركود قرونًا عديدة ، فضاعفوا من أسفارهم في سبيل البحث والتحصى ، وبغية تطور هذه المعارف ، والتمهيد لترتيب دقيق ، لكل ما فيها من عناصر التجارب الماضية • ومنذ نهاية القرن الثالث عشر أتى تطور العلوم الحديثة ، السريع ، ليفني ، وينوع ، بشكل رائع ، معرفتنا للنباتات ، هذه المعرفة التي تركز اليوم على فروع من العلم مثل علم الأحياء (١) ، وعلم الجغرافية ، وعلم الخلايا ، وعلم الوراثة ، وعلم النسيج ، وعلم الكيمياء الحيوية •

□ مسيرة المداواة بالأعشاب :

واليوم ، وبالرغم من التقدم الرائع ، في مجال المداواة ، بالعقاقير الكيميائية نجد المداواة بالأعشاب الطبية ، تتابع مسيرتها ، وتطبق بكثرة في العديد من البلدان ، كما أننا نجدها ، في بعض الأحيان ، المداواة المفضلة ، وذلك بعد أن كشف العلماء النقاب عن النتائج المفجعة أحياناً ، والناجمة عن الإفراط في تعاطي العقاقير الكيميائية •

واننا إذا ما أردنا القاء نظرة إجمالية على ما حققتة المعارف الإنسانية من تقدم في مجال النباتات الطبية ، استطعنا أن نميز أربعة عصور :

٣ - العصر الإغريقي •

١ - عصر سومر وبابل وآشور •

٤ - العصر الروماني •

٢ - عصر مصر القديمة •

ولقد تكبدت أثناء هذه العصور ، معارف تجريبية غفيرة حملها العرب إلى الأوربيين ، ورثة تلك الحضارات اليائسة •

في سومر وبابل وآشور

□ شانيدار :

قبل خمسين ألف عام ، أي في العصر الحجري القديم ، دفن رجل من أرض شانيدار ، في بلاد الرافدين « العراق القديم » ، دفن في قبر ، اكتشفه علماء الآثار منذ سنوات . وفي هذا القبر ، وجد الرجل ممدداً فوق سرير من الأزهار ، اقتطف واختيرت بكل عناية .

□ أول دستور للأدوية :

وفي حضارة سومر ، التي تعود جذورها الى ما قبل عام ٤٥٠٠ ق.م ، قام طبيب سومري في نهاية الألف الثالث ق.م ، بتدوين أئمن وصفاته الطبية على لوح من الطين كتبها بالخط المسماري . وهذه الوثيقة ، التي هي أقدم « كتاب موجز » في الطب عرفه الانسان ، بقيت مطمورة في خرائب مدينة « نسر » طوال أكثر من أربعة آلاف عام الى أن أظهرتها الى الوجود تنقيبات أمريكية وجاءت بها الى متحف جامعة مدينة فلادلفيا وكان معظم مفردات هذا الطبيب ، الواردة في تلك الوثيقة ، من عالم النبات مثل القثاء الهندي « القاسيا » ، والآس ، والحلتيت « آسا فيتيدا » والزعتر ، ومن جملة أشجار مثل شجر الصفصاف ، والكمثرى ، والشوح ، والتين ، والنخيل . ومن الجدير بالملاحظة أن هذا الطبيب لم يعتمد على التعاويذ والرقى السحرية ، فلم يرد في هذه الوثيقة ذكر لأي إله ، أو شيطان ، في جميع نصوصها ، رغم أن استعمال الرقى والتعاويذ في علاج الأمراض كان شائعاً في بلاد سومر في الألف الثالث قبل الميلاد . إذ كان السومريون ، مثل البابليين في العهود المتأخرة عنهم ، يعزون الكثير من الأمراض الى وجود الشياطين والأرواح الشريرة في جسم المريض ، هذه الوثيقة كنز طبي تاريخي عظيم كشفت عنه تلك الوثيقة ، وهو أول دستور للأدوية عرفه الانسان .

□ عرفوا المنومات :

ومن المفيد أن نذكر أن السومريين عرفوا أيضاً المنومات ، فلقد اكتشف العالم « وولي » عام ١٩٢٩ ، في المدافن الملكية في مدينة « أور » ، قبراً يعود الى حوالي خمسة آلاف سنة خلت ، وجدت فيه هياكل الأضاحي الذين دفنوا مع الملك أحياء ، للحاق به الى الحياة الآخرة :

٦٦ هيكل من النساء وستة هياكل من المحاربين ، وكانت تغطي رؤوس تسعة من النسوة عمرات مرتبة ترتيباً جيداً ، تزينها حللي من ذهب ، وأكاليل من اللازورد والمقيق .

هياكل ممددة ، في صفوف مرتبة ، دونما علامات لخوف أو زجر أو عنف . وكان تقدير الخبراء أن هؤلاء الأضاحي ، من حاشية ، وأتباع ، وندماء ، اختاروا الموت مع ملكهم وملكيتهم ، طوعاً وأنهم شربوا شراباً مئوماً شديداً التأثير ، أغلب الظن أنه كان شراب نبات الماندراغورا وناموا نومهم الأبدى .

□ الانسان استخدم النبات منذ فجر التاريخ :

هذه الكشوف الهامة كانت لها دلالتها بالنسبة للعلماء والباحثين ، ذلك لأنها تشير بلا ريب الى أن الانسان القديم استخدم النباتات من أزهار وأوراق وجذور ، منذ فجر التاريخ ؛ وانه فعل ذلك بادراك منه ، بغية الحفاظ على حياته ودرء شبح الموت عنه . كما أن هذه الكشوف تدعو الى الاعتقاد بأن الانسان القديم كان يستعين بالخواص السحرية والصفات الرمزية للنباتات ، في كل مرة كان الأمر فيها يتعلق ببقائه على قيد الحياة . وبما أنه لم يكن يعلم الأسباب الفيزيائية للخواص الشافية التي تتصف بها تلك النباتات ، فان اعتقاده بالصفة الغارقة للطبيعة لتلك الخواص ، يبقى أمراً مرجحاً .

□ المرأة في عالم النبات :

وكما كان عالم الحيوان ، في العصور الاولى ، يستحوذ على اهتمام الرجل ، يصطاد طريده ، ليحصل على اللحم والعظم والجلد ، كذلك كان عالم النبات يستحوذ على اهتمام المرأة ، وانتباهها . فمن النبات كانت تؤخذ الجذور ، والثمار ، والأعشاب والأوراق النضرة لتكمل بها وجبات الغذاء . ومن حطب النبات كانت توقد النار التي تصطلي بها الأسرة ، وتطبخ عليها طعامها . ومن ألياف النبات ، كانت تصنع الحصر والجمال ، والسلال . ومن النبات أيضاً كانت تستخلص المواد ذوات الخصائص العجيبة ، التي تشفي الأمراض وتخفف الآلام .

وكما أن ملاحظة الانسان الأول ، لبعض النباتات والحبوب الصالحة للأكل ، ومبادرته الى زرعها قد أدت الى نمو وتطور زراعة المواد الغذائية ، كذلك أدت ملاحظة « الشامان - رجل الطب » وملاحظة « المرأة الحكيمة » لطبيعة المرض من جهة ، وخواص الأعشاب الطبية من جهة أخرى ، الى نمو وتطور الكثير من الممارجات ، التي انتقلت بعد تجربتها ، من جيل الى جيل .

□ المعارف الطبية في بابل وآشور :

وان المعارف الطبية ، التي نشأت في مصر القديمة ، انتشرت بصورة خاصة في بلاد ما بين النهرين ، ولقد تمكن الدكتور « ريجنالد كامبيل تومبسون » المدير المساعد للمتحف البريطاني تمكن عام ١٩٢٤ ، من معرفة وتحديد هوية ٢٥٠ نباتاً ومعدناً ، وعناصر مختلفة أخرى ، استعملها أطباء بابل في وصفاتهم ، وأفادوا من خصائصها العلاجية . ونخص بالذكر منها نبات السيدة الحسنة ، « بلادونا » لمعالجة التشنجات والسعال والربو القصبي . ولقد ورد ذكر القنب الهندي في ألواح بلاد الرافدين ، وكان البابليون يعرفون خصائصه المسكنة للألم ، ويصفونه لمعالجة الأرق والروماتزم . كما وجدت بين آلاف الألواح الفخارية المكتوبة بالخط المساري ، والتي كانت تحتويها مكتبة آشور بانيبال في مدينة نينوى وجدت وثائق تذكر ١٥٠ نباتاً طبيياً .

في مصر القديمة

□ بردية ايبرز ، اقدم مخطوطة مصرية تبث في المداواة بالأعشاب :

عندما عرف الانسان الكتابة ، وظهرت الى الوجود طبقة الكتّاب والأدباء ، بدأت المعرفة العلمية للحشائش الطبية وخواصها الدوائية تثبت أقدامها . وفي هذا المضمار نجد أن مصر القديمة ،

التي اكتسبت شهرة واسعة في مجال الطب والمداواة بالأعشاب تركت لنا أهم الوثائق ، ومن أقدم المخطوطات المصرية التي تبحث في المداواة بالأعشاب بردية « ايبرز » . ففي عام ١٨٧٣ ، عثر عالم الآثار المصرية الألماني ، جورج ايبرز ، على مدرج ضخم ، من ورق البردي . وبعد أن فك رموز المقدمة ، دهش لهذه الجلة التي جاءت في مقدمتها : هنا يبدأ السفر المتعلق بصنع العقاقير المفيدة من أجل مداواة كل أجزاء الجسم البشري .

□ قبل أطباء اليونان بالفي عام :

كان ذلك قبل الفي عام من ظهور أطباء اليونان الأوائل اللذين ورثوا عن المعارف الطبية المصرية والبابلية الشيء الكثير . ولقد تبين أن هذا المخطوط هو أول كتاب طبي مصري عرفه العلماء ، وهو يتضمن جزءاً خاصاً بمعالجة الأمراض الباطنية وجدولاً شتيراً ، يعدد الكثير من العقاقير . كما أن بردية ايبرز هذه والتي يعود تاريخها الى ١٥٠٠ سنة ق.م (٢) ، كما أنها تأتي أيضاً على ذكر مراجع في خارج أرض مصر . وكان التوافق الصريح بين ما ورد في المخطوطات الطبية وما جاء في مخطوطات الأعشاب في تلك الأزمنة القديمة ، أمراً مدهشاً حقاً ، وكان بعضها مشتركاً بين المجموعتين المصرية والأبشورية ، أي ورد ذكره في الألواح الآشورية كما ورد ذكره أيضاً في بردية « ايبرز » .

واليوم يمكننا القول ، ان الطب المصري كان موجوداً قبل ظهور أطباء اليونان الأوائل بالفي عام ، وكان هذا الطب يقوم على أسس من المعارف والتجارب ، غير المرتبطة بالمعتقدات الدينية . وقد تبين أن وصفتين طبيتين ، من صفات بردية ايبرز ، تعودان الى عهد السلالة الملكية السادسة ، أي الى ٢٤٠٠ عام قبل الميلاد .

□ في قصر فرعون أطباء واختصاصيون :

ونحن اليوم ، نعلم أن قصر فرعون ، في عصر الامبراطورية المصرية القديمة كان يضم هيئة من الأطباء ، بينهم اختصاصيون بأمراض الأسنان ، واختصاصيون بأمراض العيون . وبعد ذلك بحوالي الفي عام ، أي سنة ٤٥٠ ق.م ، قال المؤرخ الشهير هيرودوت « ان كل طبيب في مصر ، لا يداوي الا مرضاً واحداً » .

□ في معهد أدفو ، مدرسة طبية وبستان للنباتات الشافية :

وفي الحقبة ذاتها تقريباً ، أنشأت في معبد أدفو مدرسة طبية ، وبستان لزراع النباتات الشافية . ومن جملة النباتات ، التي كان قدماء المصريين يكثرون من استعمالها تذكر :

La Cardamome	حب الهال	Le Genièvre	العرعر
Le Cumin	الكمون	La Caloquinte	الحنظل
L'ail	الثوم	Le Grenadier	الجلائار
La feuille de séné	ورقة السنمكي	La graine de lin	بزر كتان
Le lis	الزنبق	Le Fenouil	الشمرة
Le ricin	الغرور	L'érable	القيقب

وهناك نقش بارز بين آثار مصر القديمة ، يعود الى عهد أخناتون يمثل نباتاً طبيياً لعب دوراً رئيسياً في دستور أهوية القرون الوسطى وهو نبات الماندراغورا (اللفاح) . وكان قدماء المصريين ، يعرفون كذلك خصائص الخشخاش المسكنة للألم ، والذي كانوا يستعملونه في تركيب « الدواء الخاص بمعالجة الصرخ المديد ، غير الطبيعي » .

بعض المعالجات الشائعة في عصور ما قبل التاريخ

□ نباتات شافية ، ونباتات مخدرة ، ونباتات سامة :

كان البدائيون القدماء ، الى جانب استعمالهم للأعشاب الطبية ، يلجأون الى صنوف المخدرات ، والمتومات والمسكنات المستخلصة منها . فلقد تمكنوا من الكشف المبكر للخصائص النافعة للسموم ، ولخصائصها المميته . أيضاً : عرفوا « الالبىكاكوانا » ، السم الأمازوني ، وذى الخاصية المميته ؛ كما عرفوا « الكورار » سم السهام أيضاً ، الذي يميته بشل العضلات ، والذي أصبح في عصرنا الحاضر ، واحداً من أهم العقاقير المساعدة في فن التخدير والجراحة ، وعرفوا نبات الماندراغورا ، أو اللفاح ، (ويسمى أيضاً تفاح الجن) ، وهو مثل آخر لنبات اشتهرت خصائصه المختلفة ، عند أقوام عديدة ، تفصلها عن بعضها المسافات الشاسعة . له جذور رئيسية وتدية ، ذات فرعين يشبهان ساقى الانسان ، ويعطيان النبات هذا شكل شخص من خشب .

قصص وأساطير

ان اكتشاف الانسان للخواص النافعة أو الضارة التي تتصف بها النباتات ، له جذور قديمة وعميقة . وهو بلا ريب ثمرة سلسلة طويلة من التجارب والأخطاء والتحريات الأولية الخطرة لمصادر تلك النباتات .

في هذه التحريات يلعب الدور الهام أمران أساسيان :

الأول : مراقبة الانسان لآثار التهام الحيوان لتلك النباتات .

الثاني : مراقبة تأثيرها على الانسان نفسه .

□ شجرة البن العربي :

مثال ذلك شجرة البن العربي البرية ، فلقد قيل ان بعض رجال الدين في الشرق القديم ، لاحظوا تأثير تلك الشجرة المنبه والمنشط ، على الحيوانات العاشبة التي تقتات بها ، مما دعاهم الى التفكير باستعمالها والاستفادة من تأثيرها ، كي ينعموا بالسهر الطويل وبحالة من اليقظة تساعدهم في ممارستهم لطقوسهم الدينية .

وفي أمريكا الجنوبية ، يروي السكان رواية محلية ، مفادها أن خواص نبات الكينا القوية للبن ، والخافضة للحرارة ، اكتشفها مصادفة رجل هندي ، عندما شرب من ماء تجمع تحت احدى أشجار الكينا التي سقطت أوراقها منها ونقيت في ذلك الماء .

تقول رواية أخرى أن ملاحظة بعض الحيوانات التي تعاني من الحمى ، والتي حالفها الحظ فقضت من لحاء شجرة الكينا ، أن تلك الملاحظة ساعدت في اكتشاف المنافع الشافية لذلك النبات . هذه الروايات عملت على ظهور هيكل مشترك للكثير من القصص الأسطورية التي تتعلق باكتشاف الخواص الطبية للنبات ، ذلك الاكتشاف الذي كثيراً ما كان يعزى الى تدخل إلهي .

□ نبات الجنسين :

ففي الصين عزي اكتشاف نبات الجنسين (Panax Ginseng) الى امرأة شابة عاقر هذها رجلها بالطلاق ؛ وفي احدى الليالي ، بينما كانت غارقة في النوم ظهر لها في الحلم إله المعمرين ، ونصحها بالذهاب الى الحقل ونبش جذور نبات الجنسن من باطن الأرض ، وعلمها كيف تصنع من تلك الجذور نقيماً ، ففعلت ما أملاه عليها الاله ثم شربت من النقيع فحملت ثم ولدت ابناً ذكراً .

وأن الحقبة المديدة ، التي أعقبت انهيار الامبراطورية الرومانية والتي يسميها المؤرخون القرون الوسطى لم تكن عصر تطور علمي سريع ، لأن مجالات العلم ، والسحر ، والشعوذة اختلط بعضها ببعض ، وأخذ الناس ينظرون الى عدد من العقاقير ، كالجوسكيام الأسود والبلادونا (السيدة الحسنة) ، والماندراغورا (اللفاح) ، على أنها نباتات من منشأ شيطاني .

□ نبات الماندرافورا :

وفي القرون الوسطى ، كان الناس يعتقدون أن نبات الماندرافورا ، الذي يشبه شكل جذره شكل الانسان ، يستمد قدرته من الله عز وجل ، كونه بعناية في ذات الأرض التي كوّن فيها جسد آدم ؛ من أجل ذلك اعتبر الانسان هذا النبات سيد كل النباتات . ولقد عزت الأساطير الشعبية ، الى هذا النبات ، خصائص حيوانية ، فقالت انه يزق ويصيح ، اذا ما اقتلع من جذوره وقالت ان أي انسان يسمع صياحه ، لا بد أن يصاب بالجنون؛ وقالت ان له تأثير السحر . وكان الاعتقاد السائد ، ان هذا النبات مقو للشهوة الجنسية ويشفي من العقم .

وكان المصريون القدامى يعتقدون أن اللفاح هذا ، هبة خاصة ، وهبهم إياها رع « إله الشمس » . وهناك بين آثارهم ، نقش بارز ، من عهد أخناتون ، يمثل هذا النبات العجيب . واذا ما رجعنا الى كتاب العهد القديم (التوراة) ، وقرأنا ما جاء فيه ، في سفر التكوين (الاصحاح الثلاثون رقم ١٤) تبين لنا أن « راحيل » ، عندما طلبت الى أختها « لية » أن تأتيها بنبات اللفاح هذا ، كانت تبغي من وراء ذلك معالجة عقمها ، والقدرة على الانجاب ، وكانت « راحيل » على جانب من الحكمة اذ أرادت من استعماله أن يساعدها أثناء الوضع أيضاً ، بخصائصه المنومة والمخدرة الحقيقية .

وفي القرن الأول استعمل « ديسقوريدس » هذا النبات ، كمخدر لاجراء العمليات الجراحية .

□ جان دارك الساحرة :

وهذا النبات يذكرنا بمأساة الفتاة الفرنسية جان دارك ، التي اهتمتها محكمة اكليريكية بأنها ساحرة وبأنها عذبت الانكليز باستخدامها القدرة الشيطانية والسحرية لجذر نبات الماندرافورا ، الذي كان مخبأ تحت درعها ، وحكموا عليها بالموت حرقاً .

□ كليوباترة والماندراغورا :

وفي روايته « أنطونيو ، وكليوباترة » ، أشاد شكسبير بالخصائص المنومة لهذا النبات عندما أنشد على لسان كليوباترة ، التي قالت : « اسقوني من شراب الماندراغورا ، علّني أنام فأمضي بذلك هذا الزمن الطويل ، الذي غاب فيه حبيبي أنطونيو بعيداً عني » .

وواقع الحال ، ان لكل شعب من الشعوب ، في كل مكان وعبر كل زمان ، منوماته الخاصة كالأفيون ، والحشيش (من القنب الهندي) ، والكوكا ، وكثير غيرها ، كما أن هنالك نباتات طبية محلية نجدها في أصقاع مختلفة من العالم (٣) .

□ أهمية الجذور :

ونلاحظ هنا الأهمية الخاصة التي كثيراً ما تعطى لجذور تلك النباتات ، لأنها تعتبر المقر المختار والمفضل لخواص النباتات السحرية أو الشافية . وكان الأقدمون يرون أن الجذور تشارك العنصر الأرضي (التراب) ، وأنها تقع في السطح الفاصل بين العناصر ، بين ما هو حي منها ، وما هو ليس بحي ، مما أكسب الجذور قدرات مميزة .

ولقد عزا البعض ، الفضائل الشافية للنباتات الى علاقات كونية ، تخيلوها بين عناصر الكون الحية ، وعناصره غير الحية .

وهكذا نجد أن التاريخ القديم للنباتات الشافية ، مزيج من الاختبار والتخيل ومن المادة والفكر؛ وهو تاريخ علم لا يمكن فصله عن تاريخ علم النباتات بشكل عام ؛ وإن علم النبات بقي زمناً طويلاً من اختصاص الشفاة (المداوين الشعبيين) ، والأطباء والمطارين معاً . ومهما يكن من أمر ، فمن الخطأ الظن بأن القرون الوسطى فقدت كلياً المعارف التي اكتسبتها خلال الآلاف الماضية من السنين .

□ الرهبان والمعارف القديمة :

فلقد احتفظ الرهبان ، بفضل معرفتهم اللغتين اللاتينية والاعريقية ، احتفظوا بمعارف المصور القديمة ، وكانت أديرتهم تتفاخر ببساتينها الخاصة بالأعشاب الطبية ، حيث كانت تنمو النباتات المستعملة في معالجة المرضى .

□ في مصر وآسيا الصغرى :

في مصر ، وفي آسيا الصغرى أنشأ الكتبة مجموعة معارف ، في مجالي الطب ، والداواة بالأعشاب ، وكانت تلك المعارف متبادلة بين البلدان المتجاورة ، انتشرت فيها ، وانتقلت من حضارة الى حضارة .

□ في بلاد فارس :

ففي القرن الأول من عصرنا الحالي ظهر في بلاد فارس سفر « الونداهشن » الزردشتي ، وكان ما احتواه هذا السفر من بحث في الأعشاب مستوحى من الدراسات البابلية .

□ في الهند :

وكانت الهند القديمة تحتفظ بمعرفة واسعة وقديمة جداً في علم نباتات الشفاء ، وكانت مصادر الكتابات « القيدية » شهيرة ، وتعود الى ما لا يقل عن ألفي سنة قبل الميلاد ، وان كتاب السسروتا - سامهيتا ، الذي يعدد ٧٠٠ نبات طبي تم تأليفه في عهد غوتاما البوذا ، مؤسس المذهب البوذي ؛ أي في مطلع القرن السادس قبل الميلاد .

□ في الصين :

وفي الصين ، ظهرت في عام ٥٠٠ قبل الميلاد مخطوطة « بن تشاو » بسلسلتها الطويلة ؛ وفي عام ٦٥٩ ميلادي صدر دستور الأدوية الصيني ، وهو أول وثيقة من نوعها في العالم ، أعلن عنها بمرسوم امبراطوري .

□ في أمريكا الاستوائية :

وفي العصر ما قبل الكولومبي ، ظهرت في دول أمريكا الاستوائية دساتير للأدوية النباتية « علمية » . وفي الحقائق الملكية للنباتات الطبية ، التي اكتشفها الغزاة الاسبان في المكسيك ، في عهد قبائل الأزتيك ، عام ١٥٧٠ ميلادية ، قام الطبيب « فرانسيسكو مارتينز » باستخدام عدد من تلك النباتات الطبية في معالجة المرضى ، وقام بدراسة خصائصها ومنافعها . وبعد الغزو الاسباني لفترة وجيزة ، كتب عدد من الأمريكيان الهنود الذين اعتنقوا النصرانية ، كتبوا مخطوطات ومنها مخطوطة « مارتان دولاكروز » التي تعدد وتصف حوالي ٢٠٠ نبتة طبية .

ثورة في الهلال الخصيب

□ أول حضارة في التاريخ :

منذ أكثر من خمسة آلاف عام ق.م ، بزغت على العالم شمس حضارة فريدة ومبدعة ، هي أول ما عرف في التاريخ من حضارة واسعة وشاملة وفنذة ، هي حضارة الشرق الأدنى . من هذه الحضارة ، ومن شقيقتها حضارة مصر ، استمدت أوروبا وأمريكا ثقافتها على مدى القرون ، عن طريق كريت ، واليونان والرومان . يقول ديورانت ان الآريين ، لم يشيدوا صرح الحضارة ، بل أخذوها عن بابل ومصر ، وان اليونان لم ينشئوا الحضارة انشاء ، لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه وكانوا الوارث المدلل والمتلاف لذخيرة من العلم والفن مضى عليها أكثر من ثلاثة آلاف من السنين ، جاءت الى مدائنهم مع مفاتيح الحرب والتجارة .

ولقد كان من الطبيعي أن يركز الغرب في نهضته على أسس الحضارة اليونانية ، التي كانت أحد أجزاء المثلث الحضاري المتوسطي ، الهلال الخصيب ومصر واليونان . وكان الجزء اليوناني يختزن ، بالتفاعل ، بعض عناصر الحضارة القديمة ، لا كلها .

□ حضارة بدأت تستعيد حقوقها :

ومن المفيد القول ، ان حالة القدسية التي كلل بها الغرب اليونان وروما ، بدأت تزول من العقول ؛ وأخذت منطقة الشرق الأدنى ، وقلبها النابض الهلال الخصيب ، تستعيد حقوقها الحضارية على يد بعض قضاة الفكر الانساني العادلين . يقول ديورانت أيضاً « فاذا ما درسنا الشرق الأدنى ، وعظمتنا شأنه ، فأننا انما نعترف بما علينا من دين لن شادوا بحق صرح الحضارة الأوروبية والأمريكية ، وهو دين كان يجب أن يؤدي من زمن بعيد » .

□ الهلال الخصيب دائرة التقاء قاري حضاري :

ولتعد الى البداية فلهال الشرق الأدنى ، الخصيب ، يمسك قارات ثلاث يمد اليها شرايين الحضارة ويفاعلها ؛ ومن حوله الحواجز المائية من المتوسط الى البحر الأحمر الى الخليج العربي ، يخرقها بابداعه ، ويحولها الى ممرات اتصال وتفاعل ، محققاً بذلك عالماً متوسطياً رائداً .

هذا الهلال الخصيب ، يشكل نقطة جذب ، ودائرة التقاء قاري هائل . وهو ممر إيجاري ، ومسرح للصدامات التاريخية ، تنجذب اليه ، مشدودة « بسحره الشرقي الغلاب » ، النزوحات البشرية المتعطشة الى التحضر والعمران ، كما تنهال عليه القطعان للبشرية ، كالجوارح ، بهدف التوسع والعدوان .

□ نشأة الزراعة ، والتجارة ، والصناعة ، والشرائع ، والحرف المكتوب :

على أرض هذا الهلال ، وعلى أرض مصر المجاورة له ، على هذا المسرح الحضاري الأهل بالسكان ، والفني بالثقافات المختلفة ، نشأت الزراعة ، والتجارة ، والغيل ، وعليه أيضاً نشأت الصناعات والشرائع والحكومات ، وعلوم الرياضة والطب ، والهندسة ، والفلك ، وهندسة البناء ، وأقنية الري ، والتقويم ، والساعات ، وصدرت دائرة البروج ، وعرفت الحروف الهجائية ، والكتابة ، واخترع الحبر والورق ، وكتبت الكتب ، وشيدت المدارس والمكتبات ، ونشأت الآداب والموسيقى والنحت ، وصنع الخزف المطلي المصقول ، والأثاث الجميل ؛ كما نشأت عقيدة التوحيد ، ووحدة الزواج ، واستخدمت الحلي ، وأدهان التجميل ، واستخدمت المرضعات ، وشربت الخمور ، وولدت الآلهة ، والأساطير .

□ حضارة استمد منها الغرب ثقافته :

على هذا المسرح الحضاري عرفت هذه الأشياء كلها ومنه انتشرت ، وتوزعت على العالم القديم بأسره ، عبر السفن والحروب ، والحرف المكتوب . ومن هذه الأشياء كلها استمد الغرب ثقافته على مدى القرون .

وانه بفضل موقعه الجغرافي الفريد ، في قلب العالم القديم ، وبفضل امتياز بيئته ، ومزايا مجتمعه الثقافية ، والعمرانية ، والمسكرية المتفوقة ، كان الهلال الخصيب ، يشكل المنصة الحضارية المشرقة على العالم العربي ، وعلى العالم القديم المعروف آنذلك .

□ أحداث ملأت الدنيا :

من ممالك سومر ، الى دولة سرجون الأكادي، الى دولة حمورابي ، الى دولة الآشوريين ، الى الامبراطورية الفينيقية (الكنعانية) ، الى الدولة البابلية الجديدة ، الى الدولة الاموية ، فالدولة العباسية ، نرى الأحداث تملأ الدنيا .

وان من يتأمل المراحل المصرية المستمرة ، في أرض الهلال الخصيب ، منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، ليعجب كيف تمكن هذا المجتمع الحضاري من أن يستهلك كل الأحداث الجامحة والمدمرة ، التي تتالت على أرضه وبقي حياً وخلاقاً، ومتجدداً، يفنّي العالم بأعظم ما في تراثه من قيم وقضائل ومفاهيم انسانية راقية ورفيعة .

□ تحولات تاريخية في حياة الانسان :

اذن في هذا الهلال الخصيب وفي البلدان المجاورة له تفجرت ثورة عظيمة حين طرأت على حياة الانسان تحولات تاريخية تقنية واقتصادية واجتماعية، في منطقة الشرق الأدنى؛ وكانت أوروبا القديمة وخاصة منها أوروبا الشرق متوسطة ، أول من أفاد من نتائج تلك الثورة بسبب قربها من آسيا الصغرى .

□ ظهور مدرسة الفلاسفة وعلماء الطبيعة :

وفي القسم الأيوني من البحر الأبيض المتوسط لعب تبادل المعرفة المرتكزة على قاعدة من الخبرة الشعبية بالنباتات الشافية ، لعب دوراً بالغ الأهمية . وفي غضون الألف الأول قبل الميلاد، خلقت التحولات الاقتصادية والاجتماعية وما تبعها من تقدم تقني ، خلقت حركة فكرية قوية ظهرت بعدها مدرسة الفلاسفة وعلماء الطبيعة الأيونيين ، الذين أدت تساؤلاتهم العقلانية عن الطبيعة وغاياتها وظواهرها الى ارساء أسس « التاريخ الطبيعي » الذي ظهر فيما بعد .

□ أبحاث أرسطو :

فأرسطو، ذو الفكر الكوني، بحث في التاريخ الطبيعي كما بحث في علم النبات . وفي كنيد ، وكوس ، وفي المستعمرات الاغريقية في جنوب ايطاليا ، نشأت مدارس طبيعية ، وظهرت نظرية ال « ايزونوميا » التي تقول بأن الصحة الجيدة ترجع الى التوازن بين الحار والبارد ؛ وصنّفوا الأدوية والأغذية فيما بعد الى حارة وباردة .

□ مجموعة أبو قراط :

وبذلك بدأت تتكون مجموعة المعارف الطبية التي نسبت الى « أبو قراط (مدينة كوس ٤٦٠ - ٣٧٠ ق.م) » وفي هذه المجموعة ورد ذكر ٢٣٠ نباتاً من نباتات الشفاء ؛ وورد فيها ، لكل داء من الأدوية ، وصف لدواء نباتي خاص به . ولقد هيمنت هذه المجموعة زمناً طويلاً على الطب الأوربي .

□ ديوكليس ، كراتيوس وديسكوريدس :

وفي القرن الثالث قبل الميلاد قام الطبيب الآتينى «ديوكليس دوكاريستوس» بتصنيف مصادر الحشائش الاغريقية . وبعد ذلك بقرنين ، جاء اغريقي آخر يدعى « كراتيوياس » ليكمل تصنيف « ديوكليس » . ولقد أفاد من هذا التصنيف مؤلفان من علماء القرن الأول ميلادي وهما « بلين القديم » صاحب كتاب « التاريخ الطبيعى » ، والطبيب الاغريقي ديسكوريدس مؤلف كتاب المادة الطبية : « Materia Medica » . وفي هذا الكتاب عدد ديسكوريدس أكثر من ٥٠٠ عقار ، من منشأ نباتي أو معدني أو حيواني .

□ جالينوس :

وفي القرن الثاني ميلادي ، أتى طبيب اغريقي آخر ، يدعى جالينوس ، الذي درس الطب في مدرسة معبد ايسكولاب في بيرغام ، فدوّن مجموعة تضم كل هذه المعارف العلمية في فن الشفاء ، ذكر فيها أكثر من ٤٥٠ نوعاً من النباتات الطبية ؛ وكان يؤكد على ضرورة أن يكون كل طبيب مزوداً بمعرفة قوية عن النباتات والأعشاب . ولقد استمرت تعاليمه الطبية ، شأنها في ذلك شأن تعاليم أبقرط ، استمرت مهيمنة زمناً طويلاً ؛ واقترن اسمه بما يسمى حتى اليوم ، بعلم الصيدلة الغالينية ، التي بموجبها ، تقوم المواد الحالة ، كالكحول والماء والخل ، بتكثيف الجواهر المؤثرة للعقار ، تلك الجواهر التي تستعمل في تحضير ، المراهم ، واللبخات ، وغير ذلك من الأشكال الغالينية .

□ في روما :

وكان اسهام روما في تطوير المعارف الطبية ، ضعيفاً ، وذلك لأنها كانت تعتمد على المعارف العلاجية الآتية من الخارج ولا سيما ، الاغريقية والمصرية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت الكنيسة عائقاً بين الباحثين ، وبين الدراسات المستندة الى العقل والتجربة . وهكذا بقيت أوروبا طويلاً غارقة في التكرار الممل لآراء ، بعضها صحيح وبعضها الآخر غير صحيح ، وردت في مؤلفات أساتذة الطب والمداواة بالأعشاب الأقدمين .

□ في الشرق الأدنى :

أما الشرق الأدنى ، فكانت تسود فيه روح الاستقلال من جهة ، وسمي التجار السوريين معيماً حثيثاً الى المعرفة من جهة ثانية ، مما ساعد ، في القرنين الرابع والخامس للميلاد ، على بعث الاهتمام بالنهج العلمي الاغريقي . وامتدت الحركة العلمية هذه الى بلاد فارس .

□ دور العلماء السوريين :

وبفضل العلماء السوريين ، تمّ في مدرسة « جندي سابور » تبادل وتفاعل الآراء والأفكار العلاجية الاغريقية والفارسية والهندية ، وقام الخلفاء العباسيون باستدعاء العلماء النساطرة الى بغداد ؛ وهكذا استطاع الطب العربي أن ينهل المعرفة الطبية والمعرفة العلاجية من منابع مختلفة ، وأن يغني تلك المعارف بمكتشفاته الخاصة به .

□ ابن سينا :

وفي القرن العاشر للميلاد ذكر ابن سينا ٦٥٠ نباتاً طبياً ، وفي هذا زيادة ملحوظة اذا ما قورن بمجموعتي « ديسقوريدس ، وجالينوس » .

□ مدرسة سالرنو :

كانت تجارة الأعشاب الطبية تمارس في الغالب من الأحيان ، في الأديرة المجهزة ببساتين خاصة بتلك الأعشاب وبمكتبات غنية بوثقها الطبية القديمة ، التي كانت تنسخ مرات ومرات من قبل رهبان مختصين . وكان دير « مونت كاسان » الواقع بين روما و نابولي ، أحد أديرة القرون الوسطى الكبيرة والفنية بالوثائق الطبية ووثائق المداواة بالأعشاب . وأهمية هذا الدير هي أنه كان على علاقات وثيقة مع المدرسة الطبية التي أنشأت في مدينة « سالرنو » في القرن التاسع الميلادي . وكانت تلك العلاقات استثناءً رائعاً ، في زمن كانت العلوم الطبية في أوروبا تعاني من الركود . وهناك أسطورة (رواية) تقول ان مدرسة (سالرن) الطبية ، تضافرت من أجل انشائها جهود أطباء أربعة : يوناني ، وعربي ، ويهودي ، وسالرني . ولقد بقيت تلك المدرسة طيلة ثلاثة قرون ، مركزاً هاماً لتطور الطب وتقدمه .

□ الكنيسة ، المرض عقاب من الله :

وفي القرون الوسطى كان الاعتقاد الذي فرضته الكنيسة ، بأن المرض عقاب من الله ، عائقاً كبيراً أمام تقدم المعرفة الطبية . ومع كل هذا كان هنالك تجديد في بعض الأرجاء ، ولا سيما في مدينة سالرنو .

□ أبحاث ابن سينا وابن زهر وابن البيطار :

وعلماء مدرسة سالرنو هذه ، هم الذين أفادوا من أبحاث علماء العرب أمثال ابن سينا ، وابن زهر ، وابن البيطار ، وعرفوا الغرب بمؤلفاتهم ، وبالعديد من مؤلفات أطباء اليونان . وكانوا يكتبون أبحاثاً في الطب رصينة ومبنية على العقل والتجربة ، دونت بعناية وبلغة سهلة : مثال ذلك كتاب « سيركا أنستاتس » ، الذي ظهر عام ١٦٥٠م ، ويذكر ٢٢٩ علاجاً نباتياً ، بينها علاجات مستجدة ، أخذت عن الطب العربي ، ذلك الطب الذي دخل اسبانيا مع الفتح العربي وازدهر فيها . وفي القرن الثالث عشر أدخل ابن البيطار الطبيب العربي (المالقي) ٢٠٠ نبات على لائحة « المعاقير الطبية » .

□ مدرسة مونبيلية وعلاقتها مع الشرق والأندلس :

وفي مراحل لاحقة بدأت المعارف الطبية المستقاة من الكتب ، ترسخ أقدامها ، وأخذ تيار الملاحظة ، والاختبار ، والابداع ، الذي شقت له الطريق مدرسة سالرن الطبية ، أخذ يشتد ويقوى . ومنذ القرن الحادي عشر ، سارت مدرسة مونبيلية الطبية على هذا النهج ، فاكتملت بذلك شهرة واسعة . وانه بفضل العلاقات التجارية التي كانت مدينة مونبيلية تقيمها مع الشرق من جهة ومع الأندلس العربية من جهة أخرى ، أفادت من علم الكيمياء العربي الذي كان وراء التطور والتقدم الرائعين في العلوم الطبية .

ثم ظهرت في أوروبا صورة العالم السويسري المثيرة « باراسيلز » (١٤٩٣-١٥٤١) الذي استخدم على نطاق واسع عملية التقطير للدخول الى روح وخلصه الأدوية النباتية .

□ نباتات تحمل دلائلها :

وفي مطلع عصر النهضة انتشرت نظرية الأعشاب ذوات « الامضاءات » أو ذوات « الدلائل » تقول ان النباتات الشافية تحمل بارادة من الله عز وجل ، اشارات ، وعلامات ترشد الانسان الى فضائلها ومنافعها العلاجية ، فالجوز مثلاً الذي يذكرنا شكله وتلافيفه بشكل وتلافيف دماغ الانسان ، ينفع في معالجة الاضطرابات العقلية ، والنباتات ذوات الزئبر أو تلك التي لجذعها أو جذورها شكل الشعر ، تفيد في مداواة سقوط الاشعار .

□ اكتشاف الطباعة أسهم في انتشار علم النباتات الطبية :

وفي القرن الخامس عشر ، ساعد اكتشاف الطباعة على الانتشار المتزايد لعلم الأعشاب الطبية، كما ساعد اكتشاف العالم الجديد على انتشار عقاير نباتية جديدة ، كالكيما وعرف الذهب (خشب الأنبياء) ، وغيرها . وهكذا تضافرت الاكتشافات ، والتحريات والاتصالات البشرية ، وعملت على زيادة مخزون المواد الأولية ، ذات المنشأ النباتي ، زيادة كبيرة . وأخذت تظهر فيما بعد ، قواعد علمية متخصصة ، لدفع عملية دراسة الطبيعة ، من حيث أوجهها المختلفة وغاياتها ، وظواهرها .

تجارة التوابل والمستحضرات الطبية

في بلاد الشام

□ الاغريق والرومان والفرس ، وتوابل الشرق وعطوره :

لتجارة التوابل والمنتجات الطبية ، في بلاد الشام ، تاريخ قديم ، فمنذ أن أدت فتوحات الاسكندر الكبير، الى اتصال شعوب الغرب بأقاصي بلاد الشرق ، أصبحت المنتجات الآتية من تلك البلدان البعيدة ، من مستلزمات الحياة عند الاغريق والرومان ، اذ كان هؤلاء يضيفون التوابل الى أطعمتهم، ليحسنوا من مذاقها ، كما أنهم كانوا يتعطرون ، ويبالغون في استعمال العطور ، لذلك كان استيراد التوابل والعطور، يمثل واحداً من أكبر اهتمامات التجار في ذلك الزمان .

ونحن نعلم ، أن الفرس ، في عهد بني ساسان ، كانوا أكثر الشعوب شغفاً بمنتجات الشرق . كما أن جيش بيزنطة ، الذي كان يقوده هرقل ، عندما دحر الفرس الساسانيين ، واستولى على أحد قصورهم ، (قصر الداستاجرد) ، عام ٦٢٧ ، وجد في هذا القصر كميات كبيرة من الحرير ، والتوابل، ومنها ، الفلفل، والزنجبيل ، والصبرة، والعنبر ، واغلاجون (عود الهند) الخ ... مستوردة من الهند ، وكذلك العرب عندما استولوا على Ctésiphon (المدائن)، عاصمة ملوك بني ساسان، غنموا المسك ، والعنبر ، والكافور ، وخشب الصندل .

□ الطرق البحرية :

وكانت هذه البضائع تصل الى مرفأء البحر الأبيض المتوسط ، والى مرفأء البحر الأسود عبر طرق اتبعت منذ القدم ، إما عن طريق البحر الأحمر ، والخليج العربي ، أو عن طريق آسيا الوسطى ؛ وان الطريق البحرية المؤدية الى الخليج العربي ، تهمنا بشكل خاص ، لأنها في القرون الوسطى ، وحتى القرن التاسع عشر ، كانت تساعد على تدفق المنتجات الأجنبية على سورية ، القديمة .

□ والنهرية والبرية :

فمن البصرة وبغداد ، كانت هذه الطريق تسير صاعدة في مجرى الفرات الصالح للملاحة ، تحفها على طول الشاطئ طريق ثانية للقوافل .

□ مدينة الرقة وتجارة الحرير :

وعلى هذه الطريق يذكر الجغرافيون العرب محطتين هامتين الرقة وبالس (مسكنة) . أولى هاتين المدينتين (والتي سماها الرومان كاللينيكوم) ، كانت أحد المراكز الحدودية التي يؤمها لشراء الحرير من الفرس ؛ ولقد عرفت ، في عهد العباسيين ، عصراً من الأزدهار ، بفضل العلاقات التي كانت تقيمها مع دمشق والموصل وديار بكر .

□ مدينة بالس :

وعلى مسيرة يومين من الرقة ، تقع (بالس) والتي سماها أحد الجغرافيين « مرفأ السوريين » بدليل أن السوريين ، كانوا في القرن العاشر ، ينطلقون بتجارتهم من هذا المركز . وعلى مسيرة يومين الى الغرب من (بالس) ، تقع مدينة حلب ، المركز التجاري الكبير ، للشمال السوري ، وبوابة أنطاكية ، واليهما يتجه التجار .

□ حلب وأنطاكية :

وقبل الحملات الصليبية ، كانت التجارة بين حلب وأنطاكية ، نشطة ومزدهرة .

□ اتفاق تجاري بين بزنطية وأمير حلب :

كما يؤكد كمال الدين ، مؤرخ حلب ، الذي يذكر نصوص اتفاق تجاري تم بين البزنطيين ، أسياذ أنطاكية آنذاك ، وبين أمير حلب ، اتفاق يضمن أمن وسلامة القوافل التي بين المدينتين . ومن جملة الأصناف الوارد ذكرها في ذلك الاتفاق ، نجد التوابل .

□ تجار البندقية وبيزا وجنوى وتجارة التوابل والحرير والبروكار :

وبعد تأسيس دويلات الصليبيين ، وبدءاً من القرن الثالث عشر ، أخذ تجار البندقية وبيزا ، وجنوى ، يغدون الى الشرق ، للتجار بالاقمشة الحريرية ، والتوابل ، وأقمشة البروكار الذهبية .

وكان البيزنطيون المتمركزون آنذاك ٠٠٠ في أنطاكية حوالي العام ١٢٠٠ ، يقيمون تجارتهم داخل البلاد ، وكانوا يصلون بها حتى حلب ٠ وفي الحقبة ذاتها ، كان البندقيون ، يبرمون اتفاقيات تجارية مختلفة ، مع أمير حلب ٠

□ الظاهر يبني للبندقيين فندقاً وحماماً وكنيسة :

في عام ١٢٠٨ ، بنى غياث الدين الظاهر ابن صلاح الدين ، بنى للبندقيين ، في حلب ، فندقاً (Fondaco) ، وحماماً ، وكنيسة ؛ ومنحهم امتيازات جمركية هامة ٠

□ مكانة حلب التجارية :

وفي العهد العثماني ، احتفظت حلب بمكانة تجارية مرموقة ؛ واننا نملك وصفاً ، ذكره في القرن الثامن عشر ، الرحالة « راسل » للدور الهام ، الذي شاهده بنفسه ، والذي تلعبه في حلب المتاجرة بالمنتجات الواردة من الهند ٠

يقول راسل : « التجار كثر في حلب ٠ بعضهم سافر ، وهو في سن الشباب ، حتى وصل بغداد ، أو البصرة ، وأحياناً الهند ٠ وفي سن متقدمة ، كانوا يرافقون من وقت لآخر ، القوافل التي تحمل بضائعها الى العاصمة استنبول ٠ ويقول رحالة آخر ، هو « فولني » : من حلب ، تنطلق القوافل الى بغداد ، والبصرة ، والى بلاد فارس ، وهي على اتصال أيضاً بمصر ، عن طريق دمشق ٠ وبأوروبا ، عن طريق اسكندرون ، واللاذقية ٠

ومن جملة المنتجات الطبيعية هذه ، والتي كانوا قديماً ، يطلقون عليها اسماً عاماً هو « التوابل » ، يحسن بنا ، أن نذكر :

Cannelle	القرفة	Aloès	الصبرة
L'indigo	النيلة	L'ambre	العنبر
Musc	المسك	Le bois de Santal	خشب الصندل
Alun	الشبة	Clous de Girofle	القرنفل
Camphre	الكافور	Oliban	اللبان
Cardamome	الهيل	Galanga	الخلونجان
Le benjoin	البخور	Gingembre	الزنجبيل
Poivre	الفلفل	Le Baume	البلسم

□ بلاد الشام لم تزل سوقاً هامة للتوابل والأعشاب الطبية :

وإذا كانت التبدلات الجغرافية والسياسية التي حدثت في القرن العشرين قد عزلت مدن بلاد الشام ، عن طريق التموين التقليدية تلك ، التي كانت تؤمن التوابل ، والأعشاب الطبية ، عبر الخليج العربي ، الا أنها لم تزل تعتبر ، السوق الهامة ، لهذا النوع من المنتجات ، التي يستعملها البعض في مجال الطهي ، ويستعملها البعض الآخر ، في مجال الطب التقليدي ٠

النباتات التي أدخلها العرب الى أوروبا

عندما عظمت الامبراطورية العربية ، واتسعت رقعتها ، فامتدت من المحيط الهندي الى المحيط الأطلسي ، أمكن للعرب أن يلعبوا دوراً هاماً في نقل عناصر الحضارة المادية والثقافية الى أوروبا ، المجاورة لأحد أطراف تلك الامبراطورية . ولقد أضاف العرب الى عناصر تلك الحضارة ، المستقاة من معارف يونانية وهندية وفارسية ، أضافوا عناصر عربية صرفة ابتدعها علماءهم ، فأغنوا بها حضارة الغرب .

وعلى الصعيد المادي ، هنالك جانب حضاري هام ، قلّمَا عرفه الناس ، يتصل بعملية ادخال العرب للنباتات الغذائية الى أوروبا ، فلقد قاموا ، في بعض بلدان أوروبا ، بعملية « أقلمة » لنباتات جديدة ، لم يكن الأوروبيون يعرفونها من قبل ، مثل نبات الأرز ؛ كما أنهم أعادوا ادخال نباتات أخرى ، سبق لقدماء الأوروبيين أن عرفوها ، ولكن زراعتها أهملت ، فتخلفت ، ثم تلاشت كلياً ، وذلك عقب انهيار الامبراطورية الرومانية .

ويذكر المؤرخون أن النباتات التي ظهرت في أوروبا ، في أعقاب الفتح العربي لها ، والنباتات الأخرى التي عادت الى الظهور ، أدخل العرب بعضها الى جزيرة صقلية ، مثل الفستق الحلبي ، والبرتقال ، والليمون ، والتمر ، والتوت ، والسماق ، وقصب السكر ، والبردي ، والقطن ؛ وأدخلوا البعض الآخر الى اسبانيا ، مثل الأرز ، والخرشوف ، وقصب السكر ، والخروب البري ، والمشمش ، والموز ، والقطن ، والتمر ، والزعفران :

١ - شجرة الفستق Le Pistachier :

أدخلها العرب الى أوروبا عن طريق جزيرة صقلية .

٢ - البرتقال الحلو L'Orange douce :

ربما كان الرومان قد عرفوه ؟ ولقد تمت أقلمته في شبه جزيرة ايبيريا من قبل العرب ، في القرن الرابع عشر .

٣ - البرتقال المر L'Orange amère :

البرتقال المر ، أو النارنج ، تمت أقلمته في جزيرة صقلية ، في فترة الحكم العربي . ولقد تمّ ذلك ، على وجه التحديد ، عام ١٠٠٢ م .

٤ - شجرة الليمون Le Citronier :

نقلها العرب الى صقلية ، وأحد أسمائها « ومنه لفظة الليمونادا » ، مشتق من الكلمة العربية ليمون .

٥ - شجرة النخيل ، التمر Le Palmier-datier :

ان وجود شجرة النخيل التمر في اسبانيا وجزيرتي صقلية وساردينيا يعود الفضل فيه الى العرب .

٦ - شجرة التوت Le Mûrier :

ان زراعة التوت ترتبط بصناعة الحرير . ولقد نقل العرب هذه الشجرة الى جزيرة صقلية .

٧ - شجرة الساق Le Sumac :

ان كلمة Sumac الأجنبية أخذت من الكلمة العربية ، الساق ؛ وشجرة الساق غنية بمادة العفص ؛ ويستعمل مسحوق أوراقها وثمارها المجففة ، في الدباغة والصباغة ؛ كما يستخرج منها أيضاً البرنيق ، وصمغ الملك .

٨ - قصب السكر La Canne à sucre :

أدخله العرب الى جزيرة صقلية والى اسبانيا ثم تراجعت زراعته بعد انتهاء الحكم العربي .

٩ - البردي Le Papyrus :

ينمو نبات البردي في جزيرة صقلية ، وقد يكون العرب هم الذين أدخلوا زراعته الى تلك الجزيرة .

١٠ - نبات الخرشوف L'Artichaut :

العرب هم الذين أدخلوا زراعته الى اسبانيا .

١١ - شجرة الخروب (أو الخشروب) البري Le Caroubier :

تزرع شجرة الخروب في المشرق ، وفي قورينة Cyrénaïque ، وهو الاسم القديم للشمال الشرقي من أرض ليبيا .

١٢ - شجرة المشمش L'Abricotier :

وكلمة Abricot ، اشتقتها الفرنجة من الكلمة العربية البرقوق al Barquq ؛ ولقد أدخل العرب شجرة المشمش الى حوض المتوسط في مطلع هذا القرن .

١٣ - شجرة الموز Le Bananier :

والاسم العلمي الفرنجي Musa ، مشتق من العربية . وأغلب الظن ، أن العرب هم الذين أدخلوه الى اسبانيا .

١٤ - الزعفران Le Safran :

عرفه الرومان ، واسمه العلمي سافرانوم مشتق من الكلمة الفارسية : زعفر . يزرع من أجل أزهاره ، ومنها يستخرج صبغ أصفر ، ويصلح الزعفران لتوبلة بعض الأطعمة ، ويعتقد أن العرب هم الذين أدخلوه الى اسبانيا .

١٥- الأرز ، الأرز ، الرز Riz : Le

ربما كان الأرز ، النبات الأكثر أهمية من بين النباتات التي أقلمها العرب في أوروبا . ولقد كان العالم القديم يعرف الأرز ، بفضل علاقاته التجارية مع الشرق . ولقد وصف ديودور ملك صقلية ، المعاصر لأوغسطس امبراطور الرومان ، وصف الأرز وصفا نقله عن القادة الذين رافقوا حملة الاسكندر الكبير الى الشرق . وفي عهد الامبراطورية الرومانية كان الارز يستورد من حوض المتوسط ، ولا يزرع . وانه لمن المرجح أن انتشاره في حوض المتوسط بدأ من دلتا النيل ، التي أدخل العرب اليها زراعته ، ومن هناك نقلوها الى اسبانيا . وان الاسم الاسباني Arroz يأتي من العربية . وكلمة الأرز مشتقة أصلاً من اللغة السنسكريتية . وأما الايطاليون ، فلقد عرفوا زراعة الأرز في القرن الخامس عشر ، حيث زرع في حقول قرب مدينة بيزا في عام ١٤٦٨ ، ويبدو ان زراعته هذه انتشرت في شبه الجزيرة ، آتية من اسبانيا لا من صقلية .

١٦- شجرة القطن Le cotonier :

ان كلمة Coton ، الفرنسية ، مشتقة من الكلمة العربية قطن . والقطن واحد من النباتات التي كان للعرب الدور الهام في انتشارها في أوروبا . ولا يعلم بعد ، كم هي أنواع شجرة القطن ، التي كانت تنمو نمواً عفويّاً . وهناك أنواع عدة تزرع ومنها نوع يسمى القطن العربي ، واسمه العلمي القطن العشبي *Gossypium herbaceum* او قطن الشرق ، وينمو في غربي آسيا ، وفي حوض المتوسط ، حيث نشر العرب زراعته فيه .

والحقيقة أن زراعة القطن واستعماله ، يعودان الى أزمان بعيدة جداً . ولقد انتشرا في أماكن مختلفة من العالم ، مستقل بعضها عن البعض الآخر . مثال ذلك ما اكتشفه الأوربيون ، عندما عبر الأوربيون الأطلسي ، اكتشفوا أن القطن كان يزرع في أمريكا الوسطى ، وفي أمريكا الجنوبية . وفي العالم القديم ، يبدو أن زراعة القطن تمت ، أول ما تمت ، في الهند ، قبل غيرها من البلدان . ولقد أدخل العرب زراعة القطن الى جزيرة صقلية في القرن التاسع .

ومن المفيد أن نذكر هنا أن العرب في الجاهلية ، عرفوا القطن ، وكانوا يسمونه الطوط ، زرعوه ولبسوه . فلقد جاء في شعر أمية بن أبي الصلت العنزي ، الثقفى ، الأيادي ، وهو شاعر نصراني ، أدرك الاسلام ؛ جاء في شعر له من قصيدة ، ضاع مطلعها ، وعدد من أبياتها ، فلم يبق منها الا أبيات متفرقات ، تبرز فكرة الشاعر في الأرض ... قال ، والضمير في « فيها » من الشطر الأول للأرض :

والطوط نزرعه فيها ، فلبسه
هي القرار فما نبغي لها بدلا
والصوف نجتزه ما أدفا الوبر
ما أرحم الأرض ، الا اننا كنفّر
منها خلقنا ، وكانت أمنا ، خلقت
ونحن إبنائوها ، أو اننا شكر

١٧- الحرير (خيوط دودة القز) La Soie :

ويرتبط انتاجه بانتشار زراعة شجرة التوت . أتى به البيزنطيون من الصين . أما العرب ، فلقد أدخلوا صناعة الحرير الى اسبانيا في القرن العادي عشر ، وأما الملك روجيه ، ملك صقلية ،

فهو الذي أتى بتلك الصناعة ، من اليونان الى جزيرته عام ١١٤٨ . ومن صقلية انتقلت صناعة الحرير الى مدينة البندقية ، التي سيطرت بها فيما بعد على الأسواق الأوروبية .

ومن المفيد أخيراً ، القول ان اللغات الثلاثة: الفرنسية والاسبانية والايطالية اقتبست من اللغة العربية العديد من أسماء النباتات التي أدخلها العرب الى أوروبا ونذكر منها على سبيل المثال :

١ - الزعفران ، واسمه :

بالفرنسية Safran وبالاسبانية Azafran وبالايطالية Zafferano

٢ - المشمش ، واسمه :

بالفرنسية Abricot وبالاسبانية Albaricoque وبالايطالية Albicocca

٣ - الخروب ، واسمه :

بالفرنسية Caroube وبالاسبانية Algarroba وبالايطالية Carrubo

٤ - الليمون ، واسمه :

بالفرنسية (Citron) Limon وبالاسبانية Limòn وبالايطالية Limone

٥ - القطن ، واسمه :

بالفرنسية Coton وبالاسبانية Algodòn وبالايطالية Cotone

٦ - الخرشوف ، واسمه :

بالفرنسية Artichaut وبالاسبانية Alcachòfa وبالايطالية Carcifo

علم النبات العربي وعلماءه

لقد برع العرب في دراسة النبات ، وفي التأليف فيه ، وأخذوا هذا العلم ، في عهد النهضة العباسية ، من كتب الهند ، ومن مؤلفات الطبيب اليوناني ديسقوريدس (٤) . وفي عهد النهضة تلك ازدهرت وتألقت العلوم والآداب والفنون ، وعاشت بغداد عصرها الذهبي . ثم جاء خطر المغول منذ أوائل القرن السابع للهجرة ، ليحرق بالخلافة العباسية ويهددها . فلقد غزا المغول أرض فارس بقيادة جنكيز خان ، واستولوا على بخارى وسمرقند وبلخ ، حوالي عام ٦١٦-٦١٧ هـ ١٢١٩ - ١٢٢٠ م ؛ ثم أخذت نواياهم تتجه نحو غزو العراق ، الذي اجتاحت جيوشهم ، بعد معارك مختلفة ، مرت بين كرّ وفرّ ، الى أن بلغوا تخوم بغداد ، عام ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م ، ليحاصروها ويضربوها بالمناجيق ؛ فكان أن سقطت بغداد عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وعاشت العراق آنئذ أحلك أيامها ، وكان ذلك ايذاناً بانتهاء الخلافة العباسية .

في تلك الحقبة ، من التاريخ العربي ، أخذت حالة العلم ، والعلماء ، هي أيضاً تعيش أحلك أوقاتها ؛ وأخذت شعلة الحضارة العربية والاسلامية تمصف بها رياح الحروب والانقسامات ، الى أن خبت مع استيلاء المغول على بغداد .

أما في الأندلس فإن الحركتين العلمية والأدبية ، كانتا في أوج الازدهار والتقدم ، منذ بدء الحكم العربي ، الاسلامي فيها ، وخاصة في أيام الخليفة عبدالرحمن الناصر ، الاموي ، وبن هاتين الحركتين ، سرعان ما أصابهما الضعف ، مع تعاقب حكم الدول على الأندلس ، الى ان سقطت في ايدي الفرنجة عام ٨٩٢ هـ / ١٤٩٢ م .

قلنا ان العرب أخذوا علم النبات ، في عهد النهضة العباسية من كتب الهند ، ومن مؤلفات الطبيب اليوناني ديسقوريدس . فمن قصور العباسيين في بغداد ، سرت الرسل مرتين ، الى مدينة جنديسابور ، وذلك لاستقدام جورجوس بن جبرائيل ، رئيس أطباء مدرسة الطب الشهيرة هناك والمعروفة بالمدرسة الساسانية ، ليعالج الخليفة أبي جعفر المنصور ، وليحل هو ، ومن بعده ابنه جبرائيل ، في قصور الخلفاء في بغداد مدينة السلام . ومع آل بختيشوع انتقل التراث الاغريقي ، الذي حفظ في مدينة جندي سابور ، كما جاء معهم الطبيب الهندي « منكة » ، ومواطنه « صالح بن بهلة » الذي أنقذ ابن عم الخليفة هرون الرشيد من براثن الموت . وبواسطة « ابن بهلة » دخلت كتب الطب الهندي الى قصور الخلفاء .

وكان أعظم اسمين في الطب الهندي هما « سوشروتا » في القرن الخامس قبل الميلاد ، و « شارাকা » في القرن الثاني ميلادي . وكانت كتب الهند ، وأهمها موسوعتا « سوشروتا » و « شارাকা » ، مصدر العرب الاول في العقاقير ، ولقد امتاز قدماء الهنود ، بمعرفة الحشائش وبرعوا في استخراج خواصها ، واشتهروا بمعرفة آثارها في الأبدان .

ولقد ترجم العرب ، وكذلك فعل الفرسان ، الى لغتيهما ، في القرن الثامن للميلاد ، موسوعي « سوشروتا » و « شارাকা » الهنديتين ، بعد أن مضى عليهما ألف عام ، واعترف الخليفة هرون الرشيد ، بالتفوق العلمي ، والطبي للهنود ؛ واستدعى أطباءهم لتنظيم المستشفيات ومدارس الطب في بغداد . ويقول اللورد « أمهل » ان أوروبا ، الوسيطة والحديثة ، مدينة بعلمها الطبي للعرب بطريق مباشر ، وللهند عن طريق العرب .

ولقد كان اهتمام العرب بكتاب ديسقوريدس في الحشائش والأدوية المفردة ، أكبر منه بأي كتاب ، من كتب النباتات اليونانية . عكفوا على دراسته وتمحيصه ، فصدرت له عدة ترجمات أشهرها اثنتان : الأولى في بغداد ، والثانية في قرطبة .

□ جعفر المتوكل :

يقول ابن جليل ، في كتابه « تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس » : ان كتاب ديسقوريدس ترجم بمدينة السلام ، في الدولة العباسية ، في أيام جعفر المتوكل ، قام بترجمته من اللسان اليوناني الى اللسان العربي ، اصطف بن باسيل الترجمان ، وتصفح الترجمة حين بن اسحق المترجم ، فصححها وأجازها . فما علم اصطفن من تلك الأسماء اليونانية ما كان له اسم في اللسان العربي ، فسّره بالعربية ، وما لم يعلم له اسماً في اللسان العربي ، تركه في الكتاب على اسمه اليوناني .

□ الخليفة الناصر :

كما أن ابن جلجل يقول أن كتاب ديسقوريدس ورد من بغداد الى الأندلس ، وهو على ترجمة اصطفن ، فانتفع الناس بالمعروف منه ، حتى أيام الخليفة عبدالرحمن الناصر ، صاحب الأندلس ، الذي كاتبه أرمانوس امبراطور بيزنطية ، ملك قسطنطينية في سنة ٣٣٧ هـ / ٩٤٩ م ، وهاداه بهدايا لها قدر عظيم . وكان في جملة هداياه كتاب ديسقوريدس ، مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب .

□ الراهب نيقولا :

وسأل الخليفة الناصر الملك أرمانوس ، أن يبعث اليه برجل يتكلم الاغريقية واللاتينية . فبعث أرمانوس ، الى الخليفة براهب كان يسمى نيقولا ، الذي وصل الى قرطبة سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م . وكان في ذلك الوقت ، بقرطبة ، من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء العقاقير الواردة في الكتاب أو تعيين تركيبها : حسداي شبروط الاسرائيلي ، وكان أبخثهم وأحرصهم على ذلك من جهة التقرب من الخليفة الناصر ، ومحمد المعروف بالشجار ، والبسباسي ، وأبو عثمان الجزار ، ومحمد بن سعيد الطبيب ، وعبدالرحمن بن اسحق بن هيثم ، وأبو عبدالله الصقلي ، الذي كان يتكلم اليونانية ويعرف تركيب الأدوية .

□ ابن جلجل :

ولقد أضاف العرب على الكتاب المترجم ، ما فات ديسقوريدس أن يذكره . ومن هؤلاء الأطباء الطبيب الأندلسي ابن جلجل أبو داود سليمان بن حسان ، وكان طبيباً فاضلاً خبيراً بالمعالجات ، جئد التصرف في صناعة الطب . ألّف في سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م . بمدينة قرطبة ، في دولة هشام بن الحكم ، المؤيد بالله ، ألّف كتاب « تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس » . ومقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه ، مما يستعمل في صناعة الطب وينتفع به .

□ الغافقي :

وفي القرن السادس للهجرة ، اشتهر أبو جعفر أحمد بن محمد بن السيد الغافقي ، وكان إماماً فاضلاً ، وخكيمياً عالماً . وكان يعد من الأكابر في الأندلس ، وكان أعرف أهل زمانه بقوى الأدوية المفردة ، ومنافعها وخواصها وأعيانها ومعرفة أسمائها . وكتابه في الأدوية المفردة لا نظير له في الجودة ولا شبيه له في معناه ؛ استقصى فيه ما ذكره ديسقوريدس والفاضل جالينوس بأوجز لفظ وأتم معنى ؛ ثم ذكر بعد قوليهما ما تجدد للمتأخرين من الكلام في الأدوية المفردة ، فجاء كتابه جامعاً لما قاله الأفاضل في الأدوية المفردة ، ودستوراً يرجع اليه فيما يحتاج الى تصحيحه منها . ولقد درس الغافقي النباتات الاسبانية والنباتات الافريقية ، ووصفها ووضع أسمائها بالعربية واللاتينية والبربرية . ووصف في كتابه « الأدوية المفردة » النباتات بأدق وصف ، مع ذكر أسمائها باللغات الثلاث . وله أيضاً « كتاب الأعشاب » وهو يحتوي على ٣٨٠ رسماً ملوناً وعقاقير متقنة الرسم .

□ الادريسي :

واشتهر من علماء القرن السادس الهجري ، الشريف الادريسي ، أعظم جغرافي الاسلام ، ومن علماء النبات والصيدلة المشهورين . صَنَّفَ كتباً عدة في النباتات والصيدلة ، أكثرها في بلاط بالرمو ، وهو من الذين اشتركوا بنقل العلوم العربية الى أوروبا بحكم اقامته في صقلية . وله كتاب « الصيدلة » ، بدأه بمقدمة عامة في النباتات ، تتسم بروح البحث العلمي . ويبدو من خلال كتابه هذا أنه كان كثير الاعتماد على القدماء من الناحية الطبية ، الا أنه كان من ناحية علم النبات ، مستقلاً في الرأي كثير الاعتداد بالنفس . وتنم أوصافه للنباتات عن أن معارفه في علم النبات معارف شخصية ، خاصة وغزيرة . فقد كان عالماً بقوى الأدوية المفردة ومناخها ومنابتها وأعيانها . وله من الكتب أيضاً كتاب « الأدوية المفردة » وكتاب « الجامع لصفات أشتات النبات » - ولقد ذكر الأسماء المطابقة للنباتات بلغات مختلفة ، بالعربية والفارسية واليونانية واللاتينية والسريانية والعبرية والهندية والكردية والتركية والقشتالية والبربرية والقبطية .

□ الصوري :

ومن علماء القرن السابع للهجرة ، أبو منصور ، رشيد الدين ابن الصوري . ولد سنة ثلاث وسبعين وخمسائة بمدينة صور ، في لبنان الجنوبي ، نشأ في صور ، ثم انتقل عنها ، واشتغل بصناعة الطب ، وتميز فيها ، وأقام في القدس سنتين ، وكان يطب في البيمارستان الذي كان فيها . ولقد اطلع على كثير من خواص الأدوية المفردة ، حتى تميز على كثير من أربابها . وكان قد خدم بصناعة الطب الملك العادل أبا بكر بن أيوب ، في سنة اثنتي عشرة وستمائة ، لما كان الملك العادل متوجهاً الى الديار المصرية واستصحبه معه من القدس . ثم خدّم بعده لولده الملك المعظم ، وخدم بعده الملك الناصر ، ابن الملك المعظم ، وبقي معه الى أن توجه الملك الى الكرك ، وتوجه هو الى دمشق فأقام فيها . وكان له فيها مجلس يتردد اليه المشتغلون بالصناعة الطبية . وقد توفي في دمشق ، في سنة تسع وثلاثين وستمائة .

وكان رشيد الدين ابن الصوري ، قد التقى بابن أبي أصيبعة « مؤلف كتاب طبقات الأطباء » ، في دمشق ، فأهداه تأليفاً له ، يحتوي على فوائد ووصايا طبية ، فكتب ابن أبي أصيبعة رسالة اليه ، يقول :

لعلم رشيد الدين في كل مشهد منار" علا ياتممه كل مهتدي
أتتني وصاياك الحسان التي حوت بنثر كلام كل فضل منضد
وجدت بها ما أرتجيه وانني بها أبدأ فيما أحاول مقتدي

ولرشيد الدين الصوري من الكتب كتاب « الأدوية المفردة » ، بدأ بعمله في أيام الملك المعظم ، وجعله باسمه ، واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة ؛ وذكر أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها ، لم يذكرها المتقدمون . وكان عند خروجه لدراسة النبات ، في منابتها ، يستصحب مصوراً ،

ومعه الأصباغ على اختلافها وتنوعها . فكان يتوجه التي المواضيع التي بها النبات ، مثل جبل لبنان وغيره من المواضيع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات ، يشاهده ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه ، وأصوله ؛ ويصور بحسبها ويجهد في محاكاتها . ثم انه سلك أيضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً ، وذلك أنه كان يُري النبات للمصور في إبان نباته وطراوته فيصوره ؛ ثم يريه إياه أيضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ؛ ثم يريه إياه أيضاً في وقت ذواه ويبسه ، فيصوره ، فيكون النبات الواحد ، ظاهراً للناظر اليه في الكتاب ، وهو على أنحاء مختلفة لا تمكن رؤيتها في الأرض ، متجمعة ، في وقت واحد ؛ فيكون تحقيقه له أتمّ ومعرفة له أبين . ولابن الصوري ، كتاب « الرد على كتاب التاج للفاوي ، في الأدوية المفردة » . وله تعليقات وفرائد ووصايا طبية ، كتب بها الى ابن أبي أصيبعة .

□ ابن الرومية :

هو أبو العباس النباتي ، واحد من أولئك العلماء ، الذين أدى ازدهار علم النبات والأعشاب في الأندلس ، الى ظهورهم ، وتكنية بعض المصادر التاريخية بـ « ابن الرومية » وهي كنية « كان يكرهها ويقلق لها » كما ذكر المؤرخ ابن عبد الملك المراكشي .

ولد أبو العباس النباتي في اشبيلية سنة ٥٦١ هـ / ١٦٦٥ م . وكان واحداً من أعظم علماء الأعشاب في الأندلس ؛ بذل جهداً علمياً مكثه من أن يؤلف خمسة كتب في الحشائش والنباتات : كان عالماً طليعاً ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . كان يعشق المعرفة ويتحرى أسبابها ، ويجري وراءها ؛ ولذلك لم يلتزم البقاء في مدينته اشبيلية بل قام يطوف في أرجاء الأندلس ، من سهل وجبل وبادية وساحل . وقد أتى لسان الدين الخطيب ، على ذكره في كتابه « الاحاطة في أخبار غرناطة » ، قال انه دخل غرناطة « غير ما مرة لسماع الحديث ، وتحقيق النبات ، وفتش عن عيون النبات بجبالها » . وقال في حقه أيضاً : « انه كان نسيج وحده ٥٠٠٠٠ وعجبة نوع الانسان في عصره وما قبله وما بعده ، في معرفة النباتات على اختلاف أطوار منابتها حساً ومشاهدة وتحقيقاً » .

ولم تكن مطامح أبي العباس العلمية ، لتتوقف عند حدود وطنه الأندلس ، بل استنهضت همته للقيام برحلة هي أطول ما أنجزه نباتي عشاب في تاريخ حضارتنا . واذا كان تلميذه الأندلسي ، ضياء الدين بن البيطار المالقي ، قد سافر الى بلاد الأغارقة ، وأقصى بلاد الروم ، فان الرحلة العظمى التي حققها أبو العباس كانت أطول مسافة ، ولا تقل عنها خطراً .

لقد غادر أبو العباس اشبيلية سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م . مجتازاً البحر ، الى العدوة المغربية . ومن هناك أخذ ينتقل بين مدن شمال افريقيا وسواحلها وسهولها وفيافها ، مخالطاً الناس في المدينة والريف والبادية ، مستمعاً الى ما يخبرونه به من معلومات عندهم التي يعهدونها في مناطقهم وينتفعون بها في غذاء أو دواء ، حتى نزل الاسكندرية فالقاهرة ، وسار على ضفاف النيل ٥٠٠ وهو في ذلك كله يبحث عن النباتات والأعشاب ويتحقق من منافعها .

وبعد مصر ، زار أبو العباس الديار المقدسة ، ثم توجه الى الشام والعراق ، وأمعن في رحلته حتى اقليم خراسان (٥) - ومضى فيه حتى مدينة « مرو » (٦) ، التي كانت ، آنذاك ، حاضرة غنية بعلمائها وفقهائها ، وكانت مكتباتها تزخر بالكتب والمخطوطات .

ولقد مرَّ أبو العباس بمدينة « حران » (٧) في رحلته العلمية هذه التي استغرقت عامين ، وبعض العام ، وتمخضت عن تأليفه كتابه الفريد « الرحلة النباتية » الذي فاق فيه نظرائه من العشابين في حرصه على تحليلية النباتات ، أي وصفها وصفاً علمياً ، وفي دقته في هذا الوصف .

وفي الدراسة القيمة التي قام بها الباحث الأستاذ فاضل السباعي ، ونشرتها مجلة التراث العربي (العدد ٣٠ كانون الثاني - يناير ١٩٨٨) ، تلك الدراسة التي استقينا منها معلوماتنا هذه عن أبي العباس النباتي ، يقول الأستاذ السباعي :

« ولدى رجوعي الى موسوعة العشاب الأندلسي ابن البيطار ، معاصر أبي العباس وتلميذه ، وقفت فيها على نماذج وافية من علم أبي العباس ، استمدها التلميذ البار من كتاب أستاذه « الرحلة النباتية » . ومما لاحظته في المفردات المئة والاثنتين ، التي اقتبس ابن البيطار فيها معلومات من أبي العباس ، أن ما يرد في المفردة الواحدة من المعلومات كان نصيب أبي العباس فيها غالباً هو الأوفى ؛ وأحياناً لم يكن يرد في المفردة الا ما قاله نباتينا الطلعة وحده ، وهذه أحصيتها فكانت ٣٨ مفردة . ويتابع الأستاذ السباعي قائلاً « ولكن ما يسترعي الانتباه ويستحق مزيداً من الاعجاب ، هو أن ٦٦ مفردة ، من ال ١٠٢ ، قد انفرد عالمنا الاشبيلي بتجليتها ، فلم يشاركه في ذلك أحد ، وذلك يؤكد تفوقه العلمي على أقرانه من العلماء في المضمار الواحد » .

□ ابن البيطار :

ونبع في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، الحكيم العالم ضياء الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد النباتي المالقي - نسبة الى مدينة مالقة في الأندلس ، ويعرف بابن البيطار . ولد في الربع الأخير من القرن السادس الهجري ، ويقول بعض المستشرقين أنه ولد سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٧ م ، في مدينة مالقة ، وتلقى تعليمه في مدينة اشبيلية عام ٦١٧ هـ / ١٢١٩ م ، على أيدي علمائها : أبي العباس النباتي ، وعبدالله بن صالح ، وغيرهما . وأما وفاته فكانت في مدينة دمشق في شهر شعبان من عام ٤٦٦ هـ / ١٢٤٨ م .

وبعد أن تلقى هذا العالم ، علومه في الأندلس ، اتجه نحو المشرق ماراً ببلدان المغرب العربي ، ليجتمع هناك بالباحثين في علم النبات والمستغلين به . ومن المغرب ، تابع طريقه فزار آسيا الصغرى ماراً بمدينة أنطاكية ، ليصل منها الى سورية ، ولينتقل بعدها الى مصر ، ومن مصر قام برحلات الى الحجاز ، فقرة ، فالقدس ، فيروت . وقد سافر الى بلاد الاغارقة كما يذكر ابن أبي أصيبعة ، والى أقصى بلاد الروم ، والتقى بجماعة يعانون من معرفة النبات ، فأخذ عنهم معرفة نبات كثير .

وأما في مصر فقد اتصل ابن البيطار بالملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب ، الذي كان يحكم مصر ودمشق . واعتمد الملك الأيوبي على هذا العالم في الأدوية المفردة والحشائش ، وجعله رئيساً على سائر العشابين وأصحاب البسطات في الديار المصرية . ولم يزل في خدمته الى أن توفي الملك الكامل بدمشق . وبعد ذلك توجه ابن البيطار الى القاهرة ، ليبقى في خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بن الملك الكامل ، وكان حظياً عنده متقدماً في أيامه ، فذاع صيته واشتهر شهرة عظيمة .

تقول المستشرقة الألمانية زيفريد هونكة ، في كتابها ، شمس العرب تشرق على الغرب : كان ابن البيطار أعظم عباقرة العرب في علم النبات . ضم في كتابه « الجامع في الأدوية المفردة » شرحاً لألف وأربعمائة نبتة طبية ، مع ذكر أسمائها ، وطرق استعمالها ، وما قد ينوب عنها . . . ولم يكتفِ ابن البيطار بتمحيص ودراسة مئة وخمسين مؤلفاً من أبحاث من سبقه من العلماء ، الذين اعتمد عليهم في بحوثه ، بل انطلق من مدينته الأم ، مالقة ، بإسبانية ، الى مراكش وشمالى افريقية ، ومصر وسورية وآسية الصغرى ، بحثاً عن النباتات الطبية ، يراها بنفسه ، ويتيقن منها فيذكرها في كتابه .

ويقول ابن أبى أصيبعة ، صاحب كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، وتلميذ ابن البيطار ، يقول « كان ابن البيطار أوحده زمانه ، وعلامة وقته ، في معرفة النبات وتحقيقه واختياره ، ومواضع نبتة ، ونمت أسمائه على اختلافها وتنوعها . سافر الى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم ، ولقي جماعة يعانون هذا الفن ، وأخذ عنهم معرفة نبات كثير ، وعينه في مواضعه . واجتمع أيضاً في المغرب وغيره بكثيره من الفضلاء في علم النبات ، وعين منابته ، وتحقق ماهيته : وأتقن دراية كتاب ديسقوريدس اتقاناً بلغ فيه الى أن لا يكاد يوجد من يجاريه فيما هو فيه ، وذلك أننى وجدت عنده من الذكاء والفطنة والدراية في النبات وفي نقل ما ذكره ديسقوريدس وجالينوس فيه ، ما يتعجب منه .

وأول اجتماعي به كان بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة . ورأيت من حسن عشرته ، وكمال مروءته ، وطيب أعراقه ، وجودة أخلاقه ، وكرم نفسه ما يفوق الوصف ويتعجب منه . ولقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيراً من النبات في مواضعه ، وقرأت عليه أيضاً تفسيره لأسماء أدوية كتاب ديسقوريدس ، فكنت أجد من غزارة علمه ، ودرايته وفهمه ، شيئاً كثيراً جداً ، وكان أحضر لدينا عدة من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس ، وجالينوس ، والغافقي وأمثالها من الكتب الجليلة في هذا الفن ، فكان يذكر أولاً ما قاله ديسقوريدس في كتابه باللفظ اليوناني على ما قد صححه في بلاد الروم ، ثم يذكر جملة ما قاله ديسقوريدس من نعت وصفته وأفعاله ، ويذكر أيضاً جملاً من أقوال المتأخرين فيه ، ومواضع الغلط والاشتباه الذي وقع لبعضهم في نعتيه . فكنت أراجع تلك الكتب معه ولا أجده يغادر شيئاً مما فيها . وأعجب من ذلك أيضاً أنه كان ما يذكر دواءً الا ويعين في أي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس ، وفي أي عدد هو من جملة الأدوية المذكورة في تلك المقالة .

ويقول ابن أبى أصيبعة الذي كان كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » أعظم الكتب وأوفائها في تراجم الأطباء ، من عرب وأعاجم ، يقول في كتاب ابن البيطار « الجامع في الأدوية المفردة » : « لم يوجد في الأدوية المفردة كتاب أجل ولا أجود منه » وقال ان ابن البيطار صنفه للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ، حين كان مقيماً في مصر .

لقد أسهم ابن البيطار ، في مجالي النبات والصيدلة ، اسهاماً عظيماً ، وذلك باكتشافاته العلمية الهامة سواءً عن طريق العثور على نباتات جديدة أثناء تجواله ورحلاته ، ذاكرها خواصها ، وفوائدها الطبية ، أم بالشروح والملاحظات التي دونها ، فيما يتعلق بتغزين النباتات وحفظها ، وتأثير ذلك على المواد الفعالة والمكونات الغذائية الموجودة فيها .

ولقد كانت حصيلة ما ترك ابن البيطار من كتب ومؤلفات دليلاً واضحاً وبرهاناً جلياً على تفوق هذا العالم ونبوغه في مجالات النبات والطب والصيدلة ، مما جعله يرقى الى مصاف كبار علماء العرب والمسلمين الذين أغنوا المكتبتين العربية والإسلامية ببحوثهم ودراساتهم القيّمة .

وخلص القول :

ان علم النبات والأعشاب عند العرب ازدهر منذ القرن الرابع الهجري ، وشاع التداعي بالحشائش والأعشاب في الأندلس ، على أيدي علماء أندلسيين أمثال ابن جليل ، والغافقي ، والشريف الإدريسي ، وأبي العباس النباتي (ابن الرومية) ، وضياء الدين ابن البيطار ، الذين شملت علومهم واختصاصاتهم ، مجالات النبات والطب والصيدلة ، فكانوا رواداً ، برعوا في معرفة الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ، وافتتحوا الصيدليات العامة في زمن المنصور ؛ كما ألحقوا صيدليات خاصة بالبيمارستانات . وكان للصيدلية رئيس يسمى (شيخ صيدلاني) البيمارستان . وجعلوا على الصيدلة رئيساً يسمى رئيس العشابين ، ووضعوا كتباً خاصة بتركيب الأدوية أطلقوا عليها اسم الأقربازين .

ولقد عُرف أبو العباس القلقشندي (المتوفى سنة ٨١٢ هجرية) ، الصيدلية الملحق بالبيمارستان على الوجه التالي : « هي الخزانة المعبر عنها في زماننا بالشرابخانة ، وكان فيها من أنواع الأشربة والمجائن النفيسة ، والمربيات الفاخرة ، وأصناف الأدوية ، وألطور الفائقة ، التي لا توجد الا فيها ؛ وفيها من الآلات النفيسة والآنية الصينية من الزبادي البراني ، ما لا يقدر عليه سوى الملوك » .

ولقد رسم العرب صوراً لصيدلياتهم الخاصة في عواصم حضارتهم ، وقد ارتدى الصيدلي ثياباً بيضاء ووقف بباب صيدليته يصرف الدواء ، ومن ورائه الرفوف الممتلئة بالأدوية والقوارير . وفي إحدى الصور ، يرى الصيدلي وهو يشتري بعض الحشائش من أحد العشابين المتجولين الذين كانوا يعرفون مزايا تلك الحشائش الطبية ، فيجمعونها أو يستوردونها من الصين والهند وإفريقية الشرقية ، مع ما يستوردونه من صمغ وتوابل وقرنفل ، ومسك وكافور ، وصندل وعنبر .

وان الأمل المعقود اليوم على باحثينا ، وعلمائنا ، في أن يولوا هذه الثروة من العلم والمعرفة التي خلفها لهم الأجداد ، كل اهتمامهم وأن يتفرغوا لدراستها ، وشرحها ، ونشرها بين أبناء الجيل الحاضر .

جوزيف كلاس

□ الحواشي :

- ١ - علم يبحث في اشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة ، كما تمثلها المتحجرات أو المستحاثات الحيوانية والنباتية .
- ٢ - « تذكر مراجع أخرى أقدم عهداً تعود الى ٣٠٠٠ سنة ق م » .
- ٣ - ومن المفيد أن نذكر هنا قول أبوقراط ، منذ ٤٥٠٠ عام « ليكن غذاؤك دواءك » . وقوله أيضاً ، « عالجوا كل مريض بنبات أرضه ، فهو أجلب لشفاؤه » .
- ٤ - ديسقوريدس طبيب يوناني ، ولد في عين زربة في آسيا الصغرى ، في القرن الأول بعد الميلاد .
- ٥ - إقليم خراسان ، يقع اليوم في أرض أفغانستان .
- ٦ - مدينة مرو ، تقع اليوم في جمهورية تركمانيا السوفيتية .
- ٧ - مدينة حران ، تقع في الجنوب الشرقي من الجمهورية التركية اليوم .

النباتات الطبية

تاريخها ، قصصها ، وأساطيرها

□ المراجع العربية :

- ١ - د. أحمد زكي ، « التوابل » - الكويت ، مجلة العربي ، آذار ، ١٩٦٨ .
- ٢ - حنيفه الخطيب ، « الطب عند العرب » - الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- ٣ - د. شكري ابراهيم سعد ، « النباتات الطبية والعطرية في الوطن العربي » - الكويت ، مجلة العربي ، تموز ، يوليو ١٩٨٨ .
- ٤ - محمد أمين الميداني ، « ابن البيطار » - دمشق ، مجلة التراث العربي ، تشرين اول ، وكانون الثاني ، ١٩٨٦ - ١٩٨٧ .
- ٥ - فاضل السباعي ، « ابو العباس النباتي (ابن الرومية) » .
- ٦ - د. جورج بوست ، « نبات سورية وفلسطين والقطر المصري وبواديها » - بيروت ١٨٨٤ . برخصة مجلس معارف سورية الجليلة .
- ٧ - د. ا. الخطيب ، د. ب. العابد ، د. ج. كلاس ، د. ه. دوي ، « ندوة حول الاعشاب الطبية في بلاد الشام » ، دمشق قاعة المحاضرات ، مكتبة الاسد ، حزيران (يونيو) ١٩٩١ .
- ٨ - زيفريد هونكة ، « شمس العرب تنشط على الغرب » المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ٩ - ول ديورانت ، « قصة الحضارة » ، الجزء الثالث ، المجلد الثاني ، ترجمة زكي نجيب محمود ، القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ .
- ١٠ - ابن ابي أصيبعة ، « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » . منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ، ١٩٦٥ .

★ ★ ★

□ المراجع الأجنبية :

- | | |
|--|--|
| <ul style="list-style-type: none"> — Jacques Barrau,
« Les Plantes de la guérison ».
L'Histoire - N° 74 ,1984. — Francesco Gabrieli,
« Histoire et Civilisation de l'Islam
en Europe ».
Bordas, 1983.
Imprimé, à Verone, (Italie), en 1983.
Edition Française : Bordas, 1983. — Secrets et Vertus des Plantes Médicinales,
Publié par Selection du Reader's
Digest,
Première Edition Canadienne, 1988. — Floréol SANAGUSTIN,
« Note sur un Recueil Ancien de | <ul style="list-style-type: none"> Recettes Médicinales ».
Institut Français de Damas: Bulletin
d'Etudes Orientales,
Tome XXXXVI, 1984. Damas 1986. — W. A. Emboden,
« Bizarre Plants, Magical, Monst-
rous, Mythical »,
London, Studio Vista, 1974. — A. Leroi - Gourhan,
« The Flowers Found with Shanidar
IV, a Neanderthal Burial in Iraq »,
Science 190, P. 562-564, 1975. — A. G. Morton,
« History of Botanical Science »,
London and New York, Academic
Press, 1981. |
|--|--|